مواقف المبدعين خارج إبداعهم

المثقف بين الشجاعة والتقليد

. سمير طاهر* .

ما كان الأدباءُ والفنانون يومًا بمنجًى من تأثير القضايا المحتدمة في العالم. ذلك أنَّ الإبداع ـ بدهيّاً ـ هو جزء واحدٌ من شخصية الفرد المبدع، والأجزاءُ الأخرى هي التي تساعده على العيش والموت وبناءِ العلاقات وهدمِها. ومقدارُ سمْكِ الحَدّ بين منطقة الإبداع وبقيّةِ كيان الشخصيَّة هو مقدارٌ مختلفٌ بين مبدعٍ وآخر. وهو مقدارٌ متغيِّرٌ دومًا لدى المبدع نفسِه، تَحْكمه الكثيرُ من العوامل والشروط السيكولوجيَّة والخارجيَّة. على أنَّ العلاقة بين الجزء (الإبداع) والكلّ (الشخصيَّة) بالغةُ التعقيد. والمفيد هنا في الجانب السيكولوجيّ من الموضوع هو استحضارُ موضوعة التطهير الأرسطويّة في المسرح، لا بالنسبة إلى المُشاهِد كما تكلّم أرسطو وإنَّما بالنسبة إلى المؤلِّف نفسه. واقتراحي هو أنّ المؤلف يقوم بإفراغ شحنات مخاوفه ورغباته ـ وخصوصًا تلك التي يَعْجز عن أدائها وتحقيقها في حياته الواقعيَّة ـ في العمل الفنيّ، وبمقاربات جماليَّة تَجْعل من هذا العمل كائنًا قريبًا من المتلقِّين لأنَّ الشحنات المُفْرغة فيه لها شقائقُ في نفوسهم... فيما يَمْكث مبدعُ العمل ـ كفرد ـ بعيدًا في الظلّ، بسلوكه وتفاصيله ومواقفه الشخصيَّة بما فيها مواقفُهُ من القضايا العامّة.

إنَّ المَحَاور الساخنة في عالمنا تورِّط المُبْدِعين في خروجاتٍ غيرِ متوقَّعة عن مداراتهم الحِرَفيَّة وعزلاتهم، متّخذةً هيئةَ تصريحاتٍ ومواقفَ سياسيَّةٍ. فلم يكن متوقَّعًا، مثلاً، أن يُصَرِّح فرانتز كافكا المعروفُ بعزلته وذاتويّته الشديدة في أعماله، إبّان الثورة البلشفيّة في روسيا، بأنَّ الناس هناك يريدون بناءَ عالم جديد. وهذا يذكّرنا بأنَّ مسألة الموقفِ من قضية عامّة هي مسألة شخصيّة أيضًا وليست مِلْكًا لخطاب سياسيّ معيّن: فهي ليست بالضرورة نتاجَ إيمانٍ بالمسؤوليّة العامّة أو بالدور الاجتماعيّ للمبدع، ولا مشروطةً بمفهوم سارتر للالتزام في الفن والأدب،[1] أو بمفهوم غرامشي للمثقف ودوره السياسيّ، وإنَّما تأخذ أحيانًا كثيرة طابعًا شخصيّاً مصطَبِغًا بقدرٍ كبير من التلقائيّة وأحيانًا البراءة. نتمثَّل هنا بموقف لوركا أثناء التمرُّد العسكريّ لفرانكو، وطابعِه الخصوصيّ قياسًا إلى موقف رافائيل ألبرتي مثلاً. ففي حين سَلَكَ الثاني ما يُملي عليه إيمانُه وانخراطُه بالمسؤوليَّة العامة والعمل السياسيّ، فانضمّ إلى المقاتلين الجمهوريِّين ثم غادر البلادَ معهم، أبدى لوركا استجابةً فرديَّةَ الطابع. فقد كان نفورُه من الانقلابيِّين متأتّيًا لا من هويّتهم السياسيَّة وإنَّما من وقائع محسوسة من قبيل: الوضع الشاذ وغيرِ الانسانيّ الذي أحدثوه في البلاد؛ ومحاربتِهم جوَّ الثقافة الحرّة الذي أَنْتَج لوركا في ظلّه أجملَ أعماله؛ وقتلِهم أصدقاءَه؛ وملاحقتِهم إيَّاه بسبب علاقاته بالأدباء والفنّانين اليساريِّين... فتمثَّلتْ استجابتُه بالتخفّي عن الانقلابيِّين لدى أصدقائه إلى أن اكتُشِفَ وأُعدِمَ. إنَّه هنا في الصميم من الخصوصيَّة، ولم يَزْعم أحد أنَّه كان متحزِّبًا أو داعيةً سياسيّاً، غير أنَّ استقلاليّته الفرديَّة وبراءته لم تمنعاه من اتِّخاذ موقف مبدئيّ في قضيّة عامّة هي رفضُ تمجيدِ ما يراه غيرَ مستحقٍّ لذلك.

من ناحية أخرى، لا نَفْهم أحياناً بعضَ المواقف لعدد من المبدعين (جون شتاينبك مثلاً أو پول ڤاليري) ونَحْسبها مغتربةً تماماً عمّا تقدِّمه أعمالُهم الإبداعيَّة من انحياز إنسانيّ. أمَّا إذا مررنا بمواقف لسارتر أو كامو في قضايا عامّة تخصّنا نحن العربَ فسنجد أنفسَنا إزاء مسألة هامّة هي مسألة المصادر الثقافيَّة للمجتمع واستجاباتِ الفرد المبدع لها. فالأخير يستقي معلوماته عن العالم، ويكوِّن معتقداته، من المصادر التي يستقي منها بقيةُ أفراد المجتمع. وهي تقدِّم نوعَيْن من المعلومات: معلومات صادقة، وأخرى منحازة أو ملفّقة ولكنَّها ـ لهذا السبب ـ تتّسم بالإلحاح والقوة في الحضور. وما

---

* ـ كاتب عراقيّ، يعيش في السويد.

١ ـ معروفٌ أنّ سارتر استثنى الشعرَ من واجب الالتزام، الأمرُ الذي لم يأخذ به الشعراءُ وهم يكافحون في الظروف الخاصّة لبلدانهم.

. سـمـيـر طاهر .

إنّنا نجد مثقفين يتّخذون موقفًا تحرُّرياً عامّاً، ولكنّهم لا يطبّقونه في قضيّة معيّنة

يهمُّنا هنا هو هذا النوع الأخير. فالفرد المُبْدع قد يَحْصل على جرعة التأثُّر التي يَحْصل عليها الناسُ العاديُّون من تلك المعلومات الملفَّقة، فينزلق إلى مستوى الموقف العاديّ الخالي من أيّ تميُّز. غير أنّ التميُّز، كطبعٍ وهاجسٍ لدى الفرد المبدع، قد يقوده إلى الشكّ في هذه المعلومات وفي مصادرها، أو قَدْ يدفعه بُعدُ نظره وسعةُ أفقه إلى الاستزادة والاطِّلاع على مصادر أخرى خارجيّة. وهذه ستكون بدايةَ الطريق إلى صيرورته مثقفًا اختلافيّاً، متمرّدًا على المصادر الثقافيّة المتاحة ومستقلاً في محاكمته قضايا الواقع والعالم.

لدينا، اذن، نوعان من استجابة المبدع للمصادر الثقافيّة المتاحة في مجتمعه. وعلينا الاستدراك مضيفين أنّ بإمكاننا التعرُّفَ على أنموذج المبدع المتماهي مع المصادر الثقافيّة للمجتمع في موقف معيّن من قضية عامة معيّنة، ثم نجده هو نفسه أنموذجًا للمثقف المتميّز من خلال موقفه من قضية أخرى. بل إنّنا نجد مثقفين يتّخذون موقفًا إنسانيّاً وتحرُّريّاً عامّاً ولكنّهم لا يطبّقونه في قضيّة معيّنة؛ وهنا نُدرج موقفَ كامو المعارِض لاستقلال الجزائر. فكامو الذي نظَّر كثيرًا في موضوع تمرُّد الإنسان على قيوده أنكَرَ على شعب الجزائر الحقَّ في أن يكون تجسيدًا لهذا الإنسان المتمرِّد على العلاقة الاستعماريّة التي تربطه بفرنسا؛ وذلك لأنّ شعبًا بهذا الاسم ـ على نحو ما عبّر كامو في واحد من أكثر مواقفه تطرُّفاً ونزقًا ـ لا وجود له ! لا أعتقد أنّ كامو هنا أدْلى بتصريحات عابرة بقدرِ ما أثْبت تقليديّةَ استجابته للثقافة الاستعماريّة، وذلك عبر معظم أعماله التي تُمسرِح الجزائر.(١)

لقد كانت منطقتنا العربيّة على الدوام مثارًا لمواقف الأدباء والفنانين المختلفة، بوصفها واحدةً من أكثر مناطق العالم توتُّرًا. والموضوع المحتدم الرئيس في هذه المنطقة كان ـ بالطبع ـ موضوعَ حقّ الشعوب في تقرير مصيرها. وهو موضوعٌ تعرَّضَ لتعمية علنيّة عندما اشتبك بالقضيّة الفلسطينيّة. فقد سُوِّقَ مشروعُ الدولة الصهيونيّة بوصفه تأمينًا لحقّ الشعب اليهوديّ في تقرير مصيره. وأسهمتْ معسكراتُ الاعتقال النازيّة ـ بحقائقها وأساطيرها، وضحاياها من يهود أوروبا، وتضخيماتِ الحركةِ الصهيونيّة لهذه القضية في أوروبا والولايات المتحدة عبر آلاف الأوردة الإعلاميّة والثقافيّة بشكل يتواصل حتى هذه اللّحظة ـ في استجلاب التأييد أو (على الأقلّ) الحياد إزاء مشروع الدولة اليهوديّة بما ينسجم مع العزم الدوليّ الحاسم على إنجازه لحساب «الحاجات الراهنة وآمال المستقبل» للإمبريالية العالميّة، كما اعترف بلفور سنة ١٩١٩. وليس بمستغرب أن نجد جيفارا في مذكّراته عن إفريقيا(٢) يَنْصح أحدَ رفاقه العاملين في الشرق الأوسط بعدم الاتّصال بالإسرائيليّين لأنّ ذلك يُغْضب «أصدقاءنا العربَ» لا لأنّ الإسرائيليّين موجودون وجودًا غيرَ شرعيّ وإجراميّاً. فالنفَسُ يبدو هنا دبلوماسيّاً لا مبدئيّاً؛ ولعلّ «تشي» ذاتَه لم يَسْلَمْ من ذلك «الحياد» إزاء حقّ اليهود في طرد العرب مادام اليهودُ قد أُبيد منهم ستةُ ملايين ونصفُ المليون في غرف الغاز الهتلريّة حسب الأسطورة الساديّة التي اجتاحت العالَمَ منذ نهاية الحرب العالميّة الثانية والتي يراد من ورائها الوصولُ الى حُكْمٍ استثنائيّ مفادُه: ثمّة شعبٌ عليه أنْ يَدْفع خسائرَ شعبٍ آخر أَوْقعها به شعبٌ ثالث...

---

١ ـ وعلى الأخصّ رواية **الغريب**. ويمكن الاطّلاعُ على تحليل لهذا الجانب فيها في كتيِّب الناقد كونر كروز أوبراين: **ألبير كامو**، والمترجم بواسطة المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر؛ وكذلك على تحليل أكثر دقّةً وقسوةً في البحث الخاصّ بكامو من كتاب **الثقافة والإمبريالية** لإدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، الصادر عن دار الآداب، بيروت ١٩٩٧.

٢ ـ صدرتْ ترجمته العربيّة سنة ١٩٩٨ بعنوان **سنة لم يكن لنا فيها براد**، وهو تقرير أخذتْ مذكّراتُ جيفارا جزءًا منه.

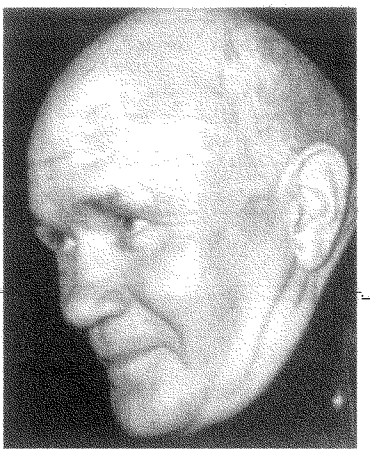

جان جينيه: موقف شجاع من المقاومة اللبنانيّة والقضيّة الفلسطينيّة

ما علينا بعد ذلك أن نستغرب تأييدَ سارتر للصهيونيّة. بل لقد كان يتبيَّن لي شيئًا فشيئًا أنّ نسبةً كبيرةً من مبدعي ومثقفي أوروبا والولايات المتحدة الأميركيّة ممّن سجّدوا حريّةَ الإنسان وتمرُّدَه وحقوقَه كانوا يَعْنون حريةَ وتمرُّدَ وحقوقَ الأوروبيّ والأميركيّ لا غير. وأعتقد أنّ أحدًا منهم لم يكن يتخيّل أنّ «هؤلاء العرب» يُمْكن أن يَقْرأوا ويَفْهموا ما كُتِبَ وأُبدع، ناهيك عن أن يتأثّروا به. لكنّنا لا ننسى المواقف الشجاعة لعدد من زملائهم، وهي تُغْني عن مئات الصفحات التنظيريّة التي دُبِّجَتْ في تقريظ الإنسان والحريّة. فالمعروف ـ مثلاً ـ أنّ جان جينيه لم يؤلّف كتبًا فكريّةً إلى جانب الكتب الدراميّة كما هو الحال مع مواطنَيْه سارتر وكامو، ولكنّه في موقفه الشجاع من المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة ومن القضيّة الفلسطينيّة بدا منسجمًا جداً مع الإضاءات الأخلاقيّة في كتاباته الدراميّة. لم يكن ثمّة تناقض بين موقفه وكتابته كما هو الحال مع المذكورَيْن.

وبسببٍ من شراسة الصراع في منطقتنا فإنّ المواقف المبدئيّة لمثقفيها ومبدعيها قد تُكلِّفهم كثيرًا من التضحيات، وأحيانًا حياتَهم. ولدينا قافلةٌ طويلة من شهداء الموقف من أدباء ومن فنّانين، غير أنّي أكتفي بمثال دراماتيكيّ هو اجتياح إسرائيل لبنانَ سنة ١٩٨٢ حيث نجد: مثقفين ومبدِعين نجوا بأنفسهم؛ ومبدعًا انتحر هو الشاعر خليل حاوي؛ ومبدعًا اختار البقاءَ مع المقاتلين المدافعين عن بيروت حتى استشهد، وهو الشاعر الفلسطينيّ علي فودة.

◆ ◆ ◆

اليوم، ما هي المحاور الساخنة في بلادنا التي تغربل مثقفيها ومبدعيها في مواقف خارج نصوصهم وأعمالهم الفنيّة؟

ثمّة قضيّة حرية التعبير وحريّة الفكر، التي تدور معاركُها في عدّة جبهات: مصر والجزائر والكويت مثلاً. وثمّة قضيّة الديموقراطيّة بشكل عام، والتي تدور رحاها في كلّ البلدان العربيّة بلا استثناء. وهناك قضية حقوق الإنسان العربيّ، التي تطويها عادةً الموضوعاتُ السياسيّة «الرئيسيّةُ» و«الأكثرُ أهميّة» ويَعْتبرها الحكّامُ العرب محضَ نكتة.

غير أنّ القضيّةَ الأشدّ حساسيّةً هي القضيّة العراقيّة، ولا شكّ أنّها قضيّة الإلغاء العلنيّ لبلد عربيّ وشعبه بذريعة الحرب مع حكّامه. إنّها قضيةُ فَرْض البرنامج الأميركيّ على المنطقة بتأييدٍ من الأنظمة الحاكمة فيها. إنّها قضيّة السابقة الرّاعبة المتمثّلة بتأييد الأنظمة العربيّة تدميرَ بلدٍ شقيقٍ وقتل شعبه ببطء، حتى وإن ارتدى هذا التأييدُ ثوبَ الاعتراض عبر تلك التصريحات الدبلوماسيّة التافهة من قبيل: «إنّ هذا عمل غير مقبول!» الآن هذا هو غربيل الأدباء والفنّانين والمثقّفين العرب، لأنّ الموقفَ المبدئيّ فيه مُكْلف، والموقفَ المتهافت فيه مربح، والسكوتَ عنه مشاركةٌ في الجريمة السافرة بحقّ ملايين الأبرياء. لقد دَفَعَ الشاعر المصريّ محمد عفيفي مطر ثمن موقفه المبدئيّ سجنًا، وذلك في أول أيام «عاصفة الصحراء.» ورفع مفكّرون من عيار إدوارد سعيد ومحمود أمين العالم صوتَهم دفاعًا عن الحقيقة الثقافيّة والتاريخيّة للعراق. وفي الخليج دافعت القاصّةُ ليلى العثمان عن الشعب والإنسان العراقيَّيْن، وكذلك الشاعرةُ البحرينيّة فوزية السندي التي ـ في قصيدة مؤثّرة ـ لم تَخْشَ لومةَ لائم. وفي الوقت الذي تجري فيه محاولاتٌ بائسة لإغفال العراق وبنيانه الاجتماعيّ والثقافيّ العريق والغنيّ، يُطْلق عبد الرحمن منيف عملاً روائيّاً ضخمًا عنه وكأنّه يقول لأولئك البائسين: هاكم جوابي! فيما يواصل أدباء وفنانون عراقيُّون نشرَ الصورة العراقيّة المحترقة أينما حلُّوا. وأُسجّل هنا نشاطاتِ الموسيقار نصير شمّة في البلاد العربيّة وغيرها، وهي نشاطات يجيّرها لحساب دعم الحاجات الإنسانيّة لشعبه، مذكّرًا في أحد تصريحاته بأنّ الحكّام يأتون ويمضون فيما الشعوب تبقى. إنّي أتمنّى أن أرى المزيد من هذه المواقف النبيلة، لأنّي أعرف أنّ الشعب العراقيّ والتاريخ لن يَغْفرا للمشاركين بصمتهم في جريمة الإبادة الجماعيّة. اليوم، هذا هو ميدان الاختبار لمواقف المبدعين العرب خارج أعمالهم الأدبيّة والفنيّة.

ستوكهولم